المؤكد لديهم أن حريقا شب، وأن كتبا نادرة أصبحت رمادا، وأنه هام على وجهه بعد لقائه بالراهب.

لماذا انقضوا عليه إذن؟ لماذا أوثقوه بحبال إيرلندية الصنع. ألقوا به فى حجرة ضيقة، مصمتة، قرب المدخل المؤدى إلى دهاليز الخبيئة المنتهكة، لكنهم عندما فتحوا الباب بعد ساعات لم يجدوا أثرا له.

هكذا راح رهيف مخلفاغموضا أشد من غموض السنغالى وتساؤلات شتى، لكن الأمر مغاير بالنسبة للبيرونى، ليس فقط لأنه من أبناء المقر، إنما لاتصاله بالخبيئة زمنا ليس بالهين، صحيح أن ظهوره كان نادرا، لكن حضوره القوى، غير المرئى، أدرك الجميع حتى وإن لم يتحدثوا إليه مباشرة، يؤكد المتصلون بالجهات السيادية عامة، والثانى عشر خاصة أنه مرصود، منذ احتجاجه العصبى، المعلن يوم إقصائه عن الأمانة، يبدو أنه لم يتوقع مفارقة موقعه يوما، أقصى ما تمناه أن يغمض عينيه إلى الأبد، أن يُدفن قرب الخبيئة، هذا ما أفضى به إلى بائعة لبن كانت تأتيه بزاده، اللبن الحامض، لم يتناول غيره طيلة أربعين عاما من الخدمة، كوب على الريق صباحا وما عدا ذلك شرب الماء وكوب قبل الغروب، أى قبل انصرافه، المرأة من قرية طناش المطلة على النيل، كانت تجىء مشيا، حتى فى أيام وهنها وإعيائها لم تنقطع عنه، تعرف أنه لن يدخل معدته أى شىء إذا لم تمض إليه، عاش على لبنها الحامض وحده، يبدو أنه يتبع تعليمة مكتوبة بالقلم العتيق على جدار مؤدى إلى دهاليز الخبيئة، يقول النص المبهم لمن يجهله أن كل من يُكلف بخدمة الخبيئة يجب أن يكون خفيفا، شفيفا، لا يقرب اللحوم أو الأسماك، لا يشم البصل أو الثوم، أخبر المرأة أنه أعد كفنه.